ليون تولستوى

المصلح الاجتماعى

(١٨٢٨ — ١٩١٠)

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

قدر لقرية "ياسنايا بوليانا" الروسية أن تشهد أرضها أعظم حادث فى تاريخ روسيا فى أواخر القرن الماضى ، ففى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس ١٨٢٨ ولد فيها الفيلسوف الكبير والمصلح العالمى الخالد الكونت "ليون تولستوى" أول ارستقراطى نادى بالاصلاح وجاهر بالمساواة واعتنق العدل والإخاء .

ولقد أرادت الأقدار لحكمة فى نفسها أن تنبع الثورة الاصلاحية من بيت يليه عراقة ونبل محتد ، يتفرع من أصل ألمانى عريق عاصر بطرس الأول وتنساب منه الى جميع بقاع العالم قوانين العدالة ، على الرغم من أن أمثال تلك الأسر كانت هى الطالمة وهى القوة الغاشمة . . . عجبا . . . لقد أشرق العدل من دياجير الظلم فخرج الى الكون قطب العدالة وحجة الاصلاح "تولستوى" .

ولو تدبر الباحث فى تاريخ تولستوى لوجد أنه خلق ليؤدى رسالة معينة ، رسالة خلقت مع جسده ، لم تخلقها الظروف ولا الحوادث ، بل هى فى لدم نفسه ، وأن كانت الحوادث قد ذكتها ونفخت فيها من روح الايمان ، وصبرتها فى بوتقة التجارب ، واتخذت وقودها من صفحات الأيام وأحداث الزمان .

فمن ذا الذى يقول أن صبيا لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره يؤلف جماعة يسميها "اتحاد النوع الإنسانى" تتضمن فى عنوانها الأهداف التى تسعى إليها؟ ومن ذا الذى يعتقد أن العقل والمعرفة هما اللذان أمليا على الصبى "تولستوى" أن يجعل شعار جماعته غصنا أخضر يرمز الى الصفاء والسلام ، ولكى يضمن له الخلود ينبته فوق قمة الجبل ! ! ثم هو فى نهاية عمره يوصى بدفنه فى تلك البقعة ، بقعة الصفاء والسلام واتحاد النوع الانسانى ؟ ! ! إنه الإلهام ، الإلهام الذى يمنحه الأنبياء والقادة ، هو الذى وجه تولستوى ، وهو الذى وصل تفكيره وهو صبى — فنرس الغصن الأخضر — بتفكيره وهو شيخ فأوصى بأن يرقد حيث رقد الغصن الأخضر ، وهكذا شاءت الأقدار .

ها هو ذا "تولستوى" يدرج الى الخامسة عشر من عمره فيلتحق سنة ١٨٤٣ بجامعة "قازان" مع إخوته ، ولكنه سرعان ما يعاف تلك الحياة التى يحياها أقرانه فى المدينة إذ هم

يحيون حياة المترفين الذين لا يجدون مانعا يحول دون رغباتهم ، أنهم شباب ، وشباب أغنياء في أيديهم ثروات طائلة ، "وقازان" عامرة بالملذات ، فهل يمكن لمن هو مثل "تولستوى" ، لمن يمور بالعقيدة والالهام اللذان خلق لها أن يرضى بهذه الحياة ؟ ! كلا ، ها هو ذا الصبي يبرم بحياة "قازان" ويتركها غير آسف عليها .

ثم ها هو ذا يلتحق بمدرسة اللغات الشرقية ، ولكنه لا يلبث حتى يبرم بها أيضا ثم يلتحق بكلية الحقوق ، ولكنه ينصرف عنها كذلك ليحاول دراسة الدين والتاريخ ، ولكنه لم يفلح فقد تأثر بفكرة أن التاريخ القديم لا فائدة من دراسته ، أما أن يدرس الدين فهذا أيضا ما يأباه ، إنه يؤمن حقا بالكتب السماوية الأربع ولكنه لا يؤمن بطريقة تطبيق المسيحية ، فينصرف عن تلك الدراسة وعن الدراسات جميعا وينتهى عهده بها .

إنه فنان ، إنه صاحب رسالة ، رسالته في روحه ، والروح القوية لا تحتاج إلى ما يحثها ، ثم ما الذى كان يستطيعه أى أستاذ يريد أن يفرض تعاليمه على "تولستوى" أنه خالق لكى يكون أستاذا ، أستاذا للجيل ولروسيا وللعالم ، ولا يجوز لمثله أن يتلقى العلم من تلاميذه أساتذة المدارس والجامعات .

هاهو يرجع إلى قريته ، وهناك يتلقى علومه على يدى عشيرته وأبناء بلدته ، لا بل هو يتلقاها عن كسرة الفلاح ، وعرق العامل وكد الفقير ولوعة المحتاج ، وإن كان في الحقيقة لا يتلقى معارف أو علوم ، وإنما هو يبحث عن الفرصة التى يتدفق فيها طموحه المكبوت ورسالته الانسانية السامية .

إن مجاعة "قازان" في تلك السنة كانت الشرارة التى نبهت في نفس تولستوى ما يحتمل فيها من أفكار وثورات ، فتراه بعدها يحاول أن يجد حلا لتلك المشكلة الخطيرة مستندا إلى آراء "جان جاك روسو" ، ولكن عبثا ، فان مثل الانقلاب الذى توحى به أفكار "روسو" لا يتم في زمن وجيز كما يتصور تولستوى ، فما يلبث أن ينصرف عن هذا العلاج بعد أن أنفق ستة شهور يحاول فيها علاج ما ترسب في النفوس فانطبعت عليه من هزيمة وظلم .

ومصلحنا من النوع الذى يتأثر شخصيا بالموضوعات التى يتصدى لها ، فهو عندما أخفق في إيجاد الحل الذى يرضيه ويرضى طموحه برم بالاقامة في البلاد فرحل إلى "بطرسبورج" وقد ربا في نفسه الألم حتى لم يعد يتألم ، وتولد من فرط الألم نزوع إلى الترف والملذات ، ومن ثم فها هو "تولستوى" ينغمس في الملذات والهوى بشكل جنونى ويندفع في تيار المترفين يقلدهم في لهوهم ومجانتهم حتى بزهم وتغلب عليهم . ولكن هذا العهد لم يطل فقد ضايقه ذاك البذخ والترف السخيف ولذلك تراه يقول في مذكراته "وكنت أعيش كالحيوانات السائمة ، لا أطالع ولا أكتب حتى وصلت إلى أحط درجات الانحطاط الأدبى ، وهذا طبيعى لشاب يريد الطموح والمعالى فيقابل بالسخرية والهزء" .

ويمضي تولستوى إلى القوقاز حيث يخرج أول انتاج له قصة "الطفولة" سنة ١٨٥٢ وبهذه الرواية يطرق أبواب المجد فتتفتح له عيون الحكمة .

تتتابع بعد ذلك صفحات المجد فى تاريخ تولستوى فهى أحيانا تبدو مرصعة بروايته الخالدة "سيباستوبول" أو مزدانة بالقصة الاجتماعية الكبيرة "آنا كارنينا" وغيرها وغيرها من القصص القصيرة والرسائل الاجتماعية الفذة والمشروعات الاصلاحية الناضجة حتى بلغ تولستوى قمة المجد وامتلك ناصية الأدب والاصلاح ، فجاءت قصة "البعث" تراثا أدبيا واجتماعيا خالدا على مدى العصور والأجيال .

"لست أدرى أين إذن العبقرية والنبوغ إن لم تكن قصة "البعث" هى عنوانها" . بهذه العبارة علّق أحد الكتاب الأمريكيين بعد أن فرغ من مطالعة تلك الرواية الخالدة ، التى أبكت روسيا أعواما ولا زالت حتى الآن تنتزع الدموع من مآق أصحاب القلوب الصلدة فى مختلف بقاع العالم .

إن قصة "البعث" تراث إنسانى محض ، هى قصة الحياة بصورها المتناقضة وحكمتها الساخرة وأوضاعها الماجنة ، ومن ثم فهى قصة نسجت حبكتها يد أجادت صوغها فأضفت على المخلوقات بالتالى نوعا من الفضائل السامية والتضحيات الغالية والألم والكفاح لتحقيق المثل العليا وانكار الذات والملذات فى سبيل راحة الضمير وهدوء البال .

ها هو تولستوى فى براعة الكاتب اللبق والمصلح المدقق يحاول أن يخلق فى نفوس الشباب روحا عادلة تنأى عن الظلم وهى فى عنفوانها فتأباه ، حتى إذا قطعت مراحل الحياة المستقبلة اشمأزت منه وحققت العدالة والانتصار للحق والفضيلة . فنراه فى قصته يضفى على بطله "نيكليودوف" ثوبا من الكمال فيقف نفسه اجتماعيا على يدى فيلسوف الانجليز العظيم "هربرت سبنسر" فيجعله ملما بعقائده كلها ، مؤمنا بنظرياته فى ملكية الأرض بالرغم من امتلاكه الأراضى الواسعة والضياع الكبيرة الشاسعة ، ثم هو فى موضع آخر يستنكر على لسان بطله ما ينطوى عليه نظام توزيع الأرض من ظلم وافتئات حتى أنه ينشىء رسالته فى نهاية تطيمه على " ملكية الأرض " .

ولكن تولستوى كاتب من كتاب الحياة الواقعية بحلوها ومرها وخيرها وشرها ، فنراه لا يخدع بما يبدو فى نفس بطله من روح نزاعة إلى العدل والحق ، بل هو أيضا من البشر ، والبشر من التراب والطين وميولهم كذلك ترابية ، فلن يلبث حتى يخلق منه حيوانا يتربص بالفريسة حتى يقتنصها وينشب فيها أظافره ثم يلفظها بعد أن يمجها .

ولن تنطلى على القراء تلك المعاذير التى حاول بها تولستوى أن ينفى عن بطله صفة الجريمة بقوله " ان نكليودوف قد حاول أن يدافع عن مبادئه السامية ونفسه العالية ، ولكنه

وجد أن الخير فى نظره هو الشر فى نظر الناس . وان الشر فى نظرهم هو الخير فى نفسه . فلم يلبث أن ألقى سلاحه واندفع فى عالم المجانة وانسلك مضطرا ضمن أعوان الرذيلة والاثم والمعصية " .

يتضح لنا إذن أن تولستوى إنما يصور فى النوع الانسانى ناحيتى الخير والشر ، ويؤيد لنا صدق ماذهبنا اليه أنه جعل من بطلته " كاتوشا " فتاة ساذجة تبهرها النظرات الساجية والشباب القوى والكلمات المنمقة . ثم هو يعود فيحدثنا " فيرا ديكوفا " تلك الفتاة الصغيرة الفقيرة التى لم تصب من العلم إلا قليلا ، نراه يصور لنا فى نفسها روحا قوية ممزوجة بمناعة لا تتأثر بسحر الرجولة ولا ببريق الذهب أو بما يغرى المرأة من المظاهر الدنيوية التى تمناها . وفى قوة ومضاء تتقدم من البطل الثرى الجميل الأمثل فتقول له " علمت أنك متناه فى الغنى غارق فى الثراء ، تنثر المال بغير حساب فيما لا ينفع ولا يؤتى ثمرا ، وأنا أريد نفع بلادى ولكننى لا أستطيع ذلك . لأنى لا أمتلك مالا يساعدنى على تحقيق بغيتى . أترضى أن تقرضنى مبلغا من المال يكون دينالك فى عنقى حتى أتم دراستى؟ وأظن أنه لا يضرك أنت يامن تنفق أموالك فى الإثم والعبث أن تعمل يوما خيرا يذكر لك فتقدنى مايوازى الأربعة جنيهات . وإذا رفضت فلا بأس عليك " .

أنه تناقض فى الشخصيتين لامرأتين الأولى ساذجة جاهلة ، والأخرى متوقدة الذكاء واسعة الحيلة جريئة شجاعة وهى مع ذلك لا تفضل الأولى علما إلا فى القليل النادر . ألم أقل أنه كاتب يعيش فى الحياة ويخضع لنواميسها وأطوارها ؟ .

ولكن تولستوى ليس بالمتشائم الذى يساير الحياة فى اقرار نهايتها المعهودة السخيفة فيسير فى الطريق الطبيعى ويختم به حياة أبطاله ، فنراه فى النهاية يغلب الخير على الشر فى النفوس ويخلق من المخطئين شهداء وأبرار ، ويجعل من الفساد هاديا الى الصلاح فينقذ النوع الانسانى من وهدة الانحطاط والمطامع والظلم والاستعباد .

وتضيق بنا الصفحات لو تناولنا ما تحتويه قصة " البعث " من لمحات فنية ومنابع اصلاحية لا ينضب ماؤها ولا تفنى عذوبتها فنكتفى بما ذكرنا لكى نعج الى تولستوى وهو فى قمة مجده حيث بشر العالم بسفره الرائع " مساوئ المجتمع وعلاجها " الذى ألفه فى أواخر أيام حياته ، نفيه وضع تولستوى دستورا جديدا فى الاصلاح إذ تناول (١) الملكية الزراعية (٢) العمل والعمال (٣) نقطة البدء فى الاصلاح ، وغيرها من الموضوعات الحيوية التى تتصل بالعدالة الاجتماعية وتعطى الفرد حقه قبل الحكومة ، وتعطى الحكومة سلطتها الحقيقية قبل الفرد .

نهاهو تولستوى يمجد الزراعة ويعتبرها أم الحياة فنراه يقول " المعيشة من الأرض والتقوت مما تجره هى أحنا معيشة لبنى الإنسان وأوفر سعادة فى استغلال حياته " ثم هو يقول فى موضع

آبترق مجال التفاضل بين الزراعة والصناعة "إن الارتزاق مما تنتجه الأرض لا يمنع العمال من الاشتغال بالصناعة في بيوتهم أو معاملهم ، وإذا فرضنا وقام هذا العمل ـ أي الزراعة ـ حائلا بينهم وبين الصناعة ، فليس يفيدنا أن تقل صناعة الآلات عديمة النفع بل الضارة بالمجتمع الانساني العاملة على التخريب والتدمير والفتك ، تلك التي تدور عليها تروس الآلات بسرعة فائقة في المعامل والمصانع ، ولو زاد الانتاج الزراعي بأنواعه فان ذلك لن ينقص بحال من ثروة الشعب أو من احتياجاته ، فالشعوب أحق بما يبعث فيها الحياة القوية لا بما يسلبهم إياها".

وفي موضع آخر نرى " تولستوى " يتحسر على العصر الذهبي للاصلاح الاجتماعي ويرى أن القوانين والمعاملات في العصور السابقة — أي قبل الملكية الفردية — أحسن وأعدل من قوانين العصر الحاضر ، وإن الفرد في الماضي كان أسعد حظا وأهنأ بالا من الفرد في العصر الحاضر .

وقد حاول كذلك غيره من العلماء إثبات وجود هذا العصر الذهبي بالأدلة العلمية ، ثم التجأوا للاساطير المحكية والقصص الدينية وقالوا بأن ما يروى فيها جميعا من أخبار ذلك العصر الذهبي دليل على وجوده . وقد عرّفوه بأنه " سابق للملكية الفردية ، سابق لانقسام الناس شيعا وفرقا وأحزابا بدافع المطامع الذاتية والمنافع الخاصة بعد أن كانوا جميعا أخوة أبناء أسرة واحدة تربطهم رابطة الجنس الانساني والعالم الأرضي .

وهذا لا يمنعنا من أن نذكر أن بعضا آخر من العلماء أخذ ينقض آراء تولستوى في هذا الموضوع واعتبر أن هذه النزعة مصدرها الحنين إلى الماضي الجميل وذكرياته وشباب الانسانية وقوتها وفتوتها ، ورغبة في الهرب من الحاضر المحفوف بالمكاره والمتاعب وقد كان لجان جاك روسو بمؤلفاته أثر عظيم في تقوية هذه الفكرة . وهذا ظاهر في كتبه وخصوصا رسالتيه المشهورتين " العقد الاجتماعي Le contrat Cocial والثانية " أصل التفاوت بين البشر ".

ولكن العلماء الذين عاصروا تولستوى يقولون بل ويؤكدون أن العصر الذهبي لم يوجد ولم يمض ولكنه آت ...... وكل آت قريب ...... على أنه لن يبزغ على الأمم وهي راقدة أو ظائرة في سماء الأحلام أو غارقة في بحار الخمول ، بل هو يشرق على الأمم الحية الناهضة اليقظة العاملة ، لا في الصباح عقيب النوم العميق ، ولكن عصرا عندما يشارف العامل على إتمام عمله ويتصبب جبينه عرقا وتبرز شرايين أذرعته تعبا من أثر العمل والجهاد ، فهو إذن مكافأة العاملين اليقظين ، والأمم العاملة هي التي تنسج برد مكافأتها وتنال جائزة عليها بعد أن تحيك كل خيط من خيوطها وتتقن نظم سداها ولحمتها .

وفى هذا المعنى يعجبنى قول "سان سيمون" الفرنسى حيث قال «لقد شاء خيال الشعراء أن يجعل العصر الذهبى فى مهد العقل الانسانى، أى فى وسط الجهالة والغلظة والفطرة وهو لعمرى عهد طفولة الإدراك البشرى الأجدر به أن يكون عصر الحديد لا عصر الذهب، فإن عصر الذهب الانسانى ليس وراءنا فى الماضى بل هو أمامنا فى المستقبل. إنه ثمرة الكمال الاجتماعى لم يتمتع بها آباؤنا ولعل أولادنا يصلون اليه يوما ما ولكنهم لن يصلوا اليه إلا إذا رسمنا لهم الخطة ومهدنا لهم السبيل».

هذه هى قسمة العصر الذهبى كما حدثت تقريبا فى القرن التاسع عشر، ونتبين منها أن العلماء يتطلعون إلى الكمال، ومنهم من يراه وراء ظهورهم وهم ما يصح أن نسميهم بالمتشائمين ومنهم من يرونه أمامهم وهم ما نسميهم بالساخطين الآملين، كما نرى أن تولستوى كان وسطا بين أولئك وهؤلاء، فهو ليس بالمتشائم الجامد، ولا بالساخط الثائر لأنه وسط بين هذا وذاك إذا تحسر على الماضى فانما لكى يدعو إلى استكمال الحاضر وإصلاح أحوال الناس باصلاح شؤونهم.

ويتفق تولستوى فى نظرية الأخذ بيد الطبقات الفقيرة مع الفيلسوف الانجليزى الكبير "هربرت سبنسر" فيلسوف القرن التاسع عشر فنراه يقول فى كتابه "مناصرة الحرية": "إن حظ الأغلبية كان وما يزال محزنا إلى درجة أن المفكر لا يستطيع التأمل فى حالهم دون أن يعتريه مزيد من الكدر... ولا ريب عندى فى أن النظام الاجتماعى الحالى نظام مشؤوم ولا ينظر اليه إنسان محب لجنسه بعين الرضا! وكذلك جهود الناس التى تبذل فى ظل هذا النظام تستدعى السخط ولا تنال إعجاب أحد، فان التمييز بين الناس بالدرجات والفروق العظيمة فى وسائل الحياة تدل على بعد المسافة بين الحقيقة والخيال وسلوك الناس تحت ضغط الحياة الاجتماعية الحاضرة وتحت تأثير ما تستلزمه من التهيج مما ينفر كل ذى طبع سليم".

وهذا أيضا رأى فيلسوف عظيم لا يقل فى نبوغه عن عظمة تولستوى المصلح، وقد استوحى هذا الرأى بطبيعة الحال من طول التأمل فى أحوال البشر والنظر فى مختلف شؤونهم، ودرس أطوارهم وتطورهم من أصل خليقتهم إلى نظام معيشتهم فى هيأة اجتماعية منظمة.

وإن من ينظر فى آراء تولستوى نحو إصلاح حال الطبقات الفقيرة، يدرك فى الحال أنه يرى نظام المجتمع الحالى ويدركها ويشير اليها ويفسرها إلى سوء تقسيم الثروة وإلى تفضيل الحسب والنسب على الكفاءة الذاتية، ويقول إن أغلبية الناس تئن من ظلم الحياة الاجتماعية الحاضرة، ثم هو بالتالى يحمل الحكومة مسؤولية هذا الوضع مشتركة فى ذلك مع أصحاب رؤوس الأموال، ثم يعود بالملامة كذلك على الطبقات الفقيرة ذاتها فيطلب منهم أن يصلحوا

من شأنهم بالتطور وهو استرداد الحقوق ، وهـذا هو الذى أرادت الأقدار والحوادث أن نشاهده فى البلاد الأجنبية .

إن فى حياة تولستوى لصفحات خالدات يعجزنا أن نتبع أيامها أو ساعاتها أو دقائقها ، فان هذا يحتاج إلى سفر كبير ، فهذا المصلح الكبير قد عاش حياة لم ينفق منها لحظة واحدة دون أن يستغلها لخير الانسانية والعمل على سعادة الآخرين ، ولذلك فنحن نتعجل السنوات والأيام فى حياة ذلك العبقرى لكى نرافقه فى أواخر عمره بعد أن وزع أراضيه بين الفلاحين وجاء بكل ما يملك فى سبيل نصرة قضيته ، حتى إنه عرض حياته يوما قربانا متواضعا على مذبح الانتصار للعدالة وللطبقات المظلومة وقد قال " هاك رأسى أقدمها بكل اغتباط بعد أن طال بها الزمن فدية لمواطنى الأعزاء " ! !

برم تولستوى بحياته وضاقت نفسه الكبيرة بما يراه فيها من أوضاع شائنة وظلم صارخ واشمأزت نفسه من رفاهية زوجته وعائلته ، فعول على الهرب من أسرته ، ولحكمة الأقدار كانت الليلة التى نفذ فيها هذه الفكرة — التى طالما خامرته — ليلة ممطرة شديدة البرودة ، فاحتمى فى الطريق ببيت ناظر محطة " ستابوفو " ولكنه كان قد تأثر بالجو الصاخب ، وما هى إلا بضعة أيام حتى توفى كاتب روسيا العظيم متأثرا بالالتهاب الرئوى .

وهكذا انطفأ السراج الذى أضاء العالم الأرضى ليشرق فى العالم السماوى مشعل العدالة وليظل أبدا وهاجا يلتمع فى ضيائه اسم " تولستوى " المصلح الاجتماعى .

زينب محمد حسين

أقوال مختارة

١ — إن الانسان لكى يكمل نماؤه يحتاج إلى كل العناصر الحية التى تؤلف بين أجزاء حياته المتخالطة وهذا هو السبب فى أن غذاءه يجب أن يزرع فى حقول مختلفة ، وينتج من منابع متفرقة

" تاغور "

٢ — أحرار الفكر هم الذين يستخدمون عقولهم دون ما غرض وبلا تحيز وفى غير ما خوف أو رهبة من فهم الأشياء التى تصطدم بعاداتهم وتقاليدهم وامتيازاتهم ومعتقداتهم.

" تولستوى "